إشكالية القديم والجديد في فكر أمين الخولي

د. جميل أبو العباس زكير الريان

١. مقدمة:

يُعدُّ الشيخ أمين الخولي من رواد الفكر المستنير الذين أبلوا بلاءً حسنًا من أجل النهوض بالأمة العربية سواء على مستوى التجديد أو التنظير، أم على مستوى الإصلاح أو التطبيق. وعلى هذا، كان التساؤل الرئيس لهذه الورقة البحثية: ما موقف مفكرنا من إشكالية القديم والجديد، أو التراث والحداثة؟

لاسيما أن عالمنا العربي المعاصر يعيش، ومنذ بضعة قرون مضت، حالة من الارتباك والتوتر الشديد بين ثنائيات عديدة تكون مترادفات لمعنى واحد: القديم والجديد، أو التراث والمعاصرة، أو المحافظة والتحديث، أو الجمود والتحرر، أو الرجعية والتقدمية، أو الأنا والآخر، أو المحلي والعالمي، أو التراث والحداثة، أو الأصالة والمعاصرة، وقد ارتبط كل مفهوم من هذه المفاهيم بالآخر، حيث أصبح لا يمكن الحديث عن أحدهما دون الآخر، حتى لم يعد من تمام الأمر الحديث عن القديم في غياب الجديد، بشكل أو بآخر، أو العكس.

لقد ظهرت هذه الثنائيات نتيجة لاحتكاك العالم الشرقي عمومًا والعربي على وجه الخصوص بالعالم الغربي، وبخاصة في مطلع القرن التاسع عشر، سواءً بطريق مباشر أو غير مباشر، والذي حمل معه مواجهة حضارية شاملة، كان لابد أن تحدث بعد أن جاءت أوروبا إلى بلادنا حاملة معها كل نواتج نهضتها الحديثة: من علم نظري، وثقافة عقلانية، وأسلحة متفوقة، ونهم شديد إلى التوسع والسيطرة على أسواق العالم. ومنذ ذلك الحين، أصبح الشغل الشاغل للعقل العربي هو التساؤل عما ينبغي أن يكون عليه موقفه من هذه المواجهة: هل يحتمي بتاريخه وتراثه الماضي، ويتخذ منه درعًا أو شرنقة تدفع عنه غوائل التيار الكاسح المتدفق من بلاد غريبة متفوقة؟، أو يساير التيار الجديد أملًا في أن يكون له نصيب

في ذلك التقدم المادي والمعنوي، الذي حقق للحضارة الأوروبية تفوقًا ساحقًا على سائر حضارات العالم القديم؟[١].

ومن هنا ظهر التساؤل عن سبل النهضة بالنسبة للعالم العربي؟، وكيف يمكن للحضارة الشرقية والعربية أن تلحق بركاب الحضارة الغربية؟، وكيف تنهض من عثرتها وكبوتها بعد أن صارت في ذيل الأمم؟ وهل على الأمة العربية أن تأخذ بالقديم جملة وتفصيلًا، أو تصبو إلى الجديد في كل مظاهره مع القطيعة التامة والقديم؟

٢. التيارات الفكرية المختلفة:

نجم عن هذه التساؤلات ثلاثة تيارات فكرية على الساحة العربية؛ التيار الأول وهو التيار السلفي أو التقليدي أو المحافظ[٢] والذي يرى أنه لا سبيل لنهضة الأمة العربية إلا بالرجوع إلى تراثها وماضيها، ذلك التيار الذي يرفع شعارًا فحواه لا يُصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما ينادي أيضًا بضرورة القطيعة مع كل ما هو تغريبي عصري ضد ما هو تراثي أي ضد الأصالة ومن أنصار هذا الاتجاه جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، ومحمد بن عبد الوهاب وغيرهم. أما التيار الثاني، فهو يخالف التيار السابق تمامًا، فهو يدعو إلى نبذ كل ما هو قديم أو رجعي يرى أنه لا يواكب العصر الحالي، عصر العلم والتقدم وهو التيار التغريبي أو التيار العلماني أو تيار الحداثة والمعاصرة[٣] ومن أنصاره سلامة موسى، وإسماعيل أحمد مظهر، ومحمد أركون وغيرهم. بينما ظهر التيار الثالث بين هذين التيارين السابقين وهو التيار التوفيقي الذي حاول أن يجمع بين ما هو أصيل لا يتنافي والحداثة وما هو حديث لا يتنافى والتراث أو الأصالة. ومن أتباع هذا التيار مصطفى صادق الرافعي، وعباس محمود العقاد، ومحمد عبده، والأفغاني وغيرهم.

---

(١) فؤاد زكريا: "**الأصالة والمعاصرة ما بين الإتباع والإبداع**"، صحيفة الوسط البحرينية، العدد ٢٧٧٩، ٢٠١٠، تم الدخول ٢٠١٦/٩/٥.

(٢) انظر: محمد عابد الجابري: "**نحن والتراث (قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي)**"، بيروت، المركز الثقافي العربي، ط. السادسة، ١٩٩٣، ص ص ١٢:١٤.

(٣) انظر، عبد الوهاب االمسيري: "**العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة**"، القاهرة، دار الشروق، المجلد الأول، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ص ١٥.

وبالرجوع إلى سؤالنا عن كيفية النهوض بالعالم العربي؟ نجد أن إجابة "أمين الخولي"– التي سنعرض لها– كانت ردًا إشكالية أُثيرت في عصره آنذاك، والتي تمثلت في التساؤلات التالية:

أ– هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربية قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء، أو هي فوران وقتِّي لا يلبث أن يخمد؟

ب– هل تعتقدون أنه يمكن تضافر هذه الأقطار وتآلفها؟ ومتى؟ وبأي العوامل؟ وما شأن اللغة في ذلك؟

ج– هل ينبغي لأهل الأقطار العربية اقتباس عناصر المدنية الغربية؟ وبأي قدر؟ وعند أي حد يجب أن يقف هذا الاقتباس، في النُّظُم السياسية الحديثة، وفي الأدب والشعر، وفي العادات الاجتماعية، وفي التربية والتعليم؟[١]

٣. موقف أمين الخولي:

بداية، لابد أن نؤكد أن حياة مفكرنا كانت جزءًا أصيلًا من فكره، وفكره مكونًا رئيسًا لشخصيته وحياته. وفي هذا الإطار يمكننا أن نُقدم الإجابة عن تساؤلنا الرئيس الذي نعرض من خلاله موقف الخولي من القديم والحديث وذلك على النحو التالي:

لقد أصبحت الحاجة إلى تجديد أسس ومعاملات خصوصيتنا الثقافية أكثر إلحاحًا من ذي قبل، ويغدو فرضًا واجبًا على جميع مثقفي العرب أن يراجعوا تراثنا ولغتنا وآدابنا، وبالطبع خطابنا الديني وتفسيراتنا للنصوص المقدسة، فكما يقول رائد المجددين الشيخ «أمين الخولي»؛ «**إن أول التجديد هو قتل القديم بحثًا وفهمًا ودراسة**» فإن المجدد إن لم يعِ الماضي ويحيط به فسيكون بغير بوصلة صحيحة ليصبح تجديده تبديدًا وتغريبًا[٢].

لقد أُسئ فهم هذه المقولة جيدًا، لأن المقصود لم يكن قطع الصلة بالماضي تمامًا، وإنما الحث على عدم العيش على كنف التراث وحضارته القديمة فحسب بل وجوب تخطيهما لمواكبة العصر، وأن نأخذ من الماضي ما هو مفيد يتفق وظروف عصرنا ونطوِّره، في

---

(١) مصطفى صادق الرافعي:" **نهضة الأقطار العربية وتخلصها من أوهام السياسة وخرافاتها.. القلوب والأدمغة هي أساس النهضة الصحيحة الثابتة**"، مقال، تم الدخول ٢٠١٦/٩/٦، http://lahodod.blogspot.com/2010/06/1_9470.html

(٢) عن مؤسسة هنداوي، http://www.hindawi.org/books/86174619

الوقت نفسه الذي نأخذ فيه من الغرب ما يتفق وتراثنا بما يحويه من ديننا، وقيمنا، وعاداتنا، وتقاليدنا.

وعلى حد تعبير نصر أبو زيد، فإن منهج الخولي الرصين لم يجد من يواصل تطويره وتطبيقه،... وإذا كان منهج الخولي الرافض للتأويلات الإيديولوجية، مهما كان حُسنُ النية وحُسنُ القصد المتوفرين، لم يجد من يطوره، ناهيك عن أن محاولات بعض المفكرين بعده، لم تنجح في التحرر من إيديولوجيات تضع الغاية مبررًا للمنهج الذرائعي[1].

بيد أن، بعض الكُتَّابِ يرون أن الشيخ أمين الخولي قد تأثر تأثرًا شديدًا بموقف الاتجاه العلماني الغربي وخاصة بنظرية التطور كما عند تشارلز داروين، والتي اتهموه بالموالاة لها جملة وتفصيلًا، إلا أن هذا الرأي مردود عليه؛ لأن الخولي لم يُلقِ بنفسه في غياهب الغرب ويُسلم نفسه له تسليمًا، وإنما في الوقت الذي أخذ فيه من الغرب ما أخذ ظل مستمسكًا بالجزء الأكبر من تراثه وخاصة الجانب الروحي أو الديني منه.

من ناحية أخرى، فإنه إذا كان تأثير نظرية التطور موجود عند الشيخ الخولي من منطلق إشادته هو نفسه بتلك النظرية، فإن هذا لا يحول دون أن تكون الطريقة ذاتها مختلفة؛ فلم يحذو الخولي حذو دارون بشكل مطلق؛ أي أن الأول لم يقل بعدم وجود إله لهذا الكون وأن الإنسان غير مخلوق وجاء عن طريق الانتخاب الطبيعي على حسب ما يزعم الأخر، وإنما طبَّق هذه النظرية من حيث التطور، والتغيير، والتجديد على المستوى الفكري، والمفاهيمي، والحياتي، والاجتماعي وهذا لا بأس به.

ولعل الشاهد على صدق إدعائي هذا التزامه بارتداء الزي الأزهري بعد أن أدخل عليه تعديلًا يجعله يساير مقتضيات العصر... واستدل تلميذه الدكتور عبد الكريم غلاب من هذا التشبث [بالزي] أنه تحقيق لمعنى الثورة في نفسه وأسلوب لبسها في مريديه؛ لأن هذا الزي كان يُمثل المادة التي كان يدرسها- علوم البلاغة والقرآن والأدب- بكتبها القديمة، ولكن عقله ينير طريق المعرفة الحقيقية أمام هذه المادة. فتلك ملابسه وهذا عقله. يلتقي القديم

---

(١) نصر حامد أبو زيد: **نحو منهج إسلامي جديد للتأويل**، مؤسسة ابن رشد للفكر الحر، تم الدخول: ٢٠١٦/٩/١٥.
http://ibn-rushd.org/pages/int/Awards/2005/documents/speech-ar.html

والجديد، والواقع والثورة عليه. وتلك إحدى سبل التعليم عند الخولي، الذي كان يرى أن الزي ليس مظهرًا خارجيًا، ولكنه جزء لا يتجزأ من شخصية الإنسان وسلوكه[١].

على هذا، فإن التجديد ليس انقطاعًا عن تراث السابقين ولا قفزًا عليه، ولكنه يكون بقتل هذا التراث بحثًا، ونقدًا لاستيعابه– حسب تعبير الشيخ أمين الخولي– وتجاوزه إلى أفق جديد يتناسب مع طبيعة العصر ومشكلات الوقت الراهن، لمواجهة التحديات المفروضة على الأمة[٢].

لذا، كان الشيخ الخولي قريبًا من "محمد إقبال" في دعوته للتجديد؛ فقد جاء في كتاب محمد إقبال "إعادة بناء الفكر الديني في الإسلام" (Re-Construction of Religion Thought)، وإن كان إقبال يركز في كتابه على المنهج، ولا يُخفى تأثره بالتطور الحادث في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية في الغرب الذي كان يعيش فيه، والذي كان واقعًا تحت تأثير نظرية دارون في مجال العلوم الإنسانية الاجتماعية[٣].

على الجانب الآخر، فقد رأى الخولي، أن النهوض بالأمة العربية لا يكون إلا من خلال الدعوة إلى تمصير اللغة العربية أو التخلي عنها، بالإضافة إلى دعوته للتجديد كما تم توضيحها سابقًا. ولكن ما فحوى دعوته لتمصير اللغة العربية؟

لقد أكد الخولي على ضرورة أن نكتب كما نتحدث ونتحدث كما نكتب. وهذا ما جعله، يُشخص أزمة الأمة، أو الأزمة القومية في هذا الازدواج القهري بين الفصحى والعامية، الذي يُصدع وحدتها الاجتماعية ويفرقها طبقات ثقافية وعقلية، وبدلًا من أن تكون اللغة وسيلة للمعرفة تصبح اللغة غاية في ذاتها، وتصبح مادة صعبة التعلم، وأنه بحسب الناظر إليها أن يلاحظ أن الأمة تعاني أزمات في تعليمها وآدابها، وفنونها، ووعيها بسبب

---

(١) حسين نصار: **أمين الخولي**، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٦، ص ١٦.

(٢) أحمد عرفات القاضي: **الفكر الإسلامي الحديث والمعاصر**، جامعة الفيوم، ص ٦.

(٣) **المرجع نفسه**، ص ١١.

اللغة، وأن هذه الأزمات أو الأزمة العامة خليقة بأن تكون أزمة وطنية سياسية تهز الكيان الاجتماعي كله"[١].

لقد طبَّق الخولي تأثره بنظرية التطور على اللغة العربية، لذا، أكد أن التطور أصل أصيل في حياة اللغة بما هي كائن اجتماعي، وأساس التطور هو الوجود البسيط أولًا، ثم النماء المترقي ثانيًا، وخلال هذا الانتقال يتكون الكائن مترقيًا، ويتغير تغيرات متدرجة[٢].

حقيقة الأمر، فإنه لما عجز الغرب عن سيطرة لغته على ربوع العالم العربي، أشاع بين العرب وبشكل خاص في مصر مقولة:"إن العرب لا يستطيعون النهوض، والسير في ركب الحضارة إلا إذا تخلوا عن اللغة العربية، ولجؤوا إلى لغات إقليمية محلية كما حدث للغة اللاتينية". وقد سخَّروا من المفكرين العرب من يقوم بهذه المهمة، ولكنهم فشلوا أيضًا[٣].

في هذا السياق، نجد "الرافعي" يؤكد أن لغة الأمة كانت الهدف الأول للمستعمرين؛ فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته .... وما ذلَّت لغة شعب إلا ذلَّ، ولا انحطت إلا كان أمره في ذهاب وإدبار، ومن هذا المنطلق يفرض المستعمر الأجنبي لغته فرضًا على الأمة المستعمرَة،... ويحكم عليهم أحكامًا ثلاثة في عمل واحد؛ أما الأول فحبس لغتهم في لغته سجنًا مؤبدًا، وأما الثاني فالحكم على ماضيه بالقتل محوًا ونسيانًا، وأما الثالث فتقييد مستقبلهم بالأغلال التي يصنعها، فأمرهم من بعده لأمره تبع[٤].

ومن هنا يرى "الرافعي" أن أكثر مشاكل الشرق جاءت من تخليه عن لغته، ولهذا السبب أضحى ذليلًا؛ وذلك لأنه ليس في العالم أمة عزيزة الجانب تقدم لغة غيرها على لغة نفسها، فاللغات تتنازع القومية، وإذا هانت اللغة القومية على أهلها، أثرت اللغة الأجنبية في الخُلق القومي ما يؤثر الجو الأجنبي في الجسم الذي انتقل إليه وأقام فيه. أما إذا قويت

---

(١) محمد الكتاني: **الصراع بين القديم والجديد في الأدب العربي الحديث**، الجزء الثاني، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ٧٨٢.

(٢) أمين الخولي: **مشكلات حياتنا اللغوية**، القاهرة، دار المعرفة، ١٩٦٥، ص ٤٦.

(٣) عبد المنعم يونس: **موقف الرافعي من دعاة العامية واللغات الأجنبية**، مقال في، موقع جماعة العدل والإحسان بتاريخ، الثلاثاء ٦ فبراير ٢٠٠٧، تم الدخول،٢٠١٦/٩/١٨.

(٤) مصطفى صادق الرافعي: **وحي القلم**، راجعه، درويش الجويدي، الجزء الثالث، بيروت المكتبة العصرية، ٢٠٠٢، ص٢٩.

العصبية، وعزت اللغة، وثارت لها الحمية، فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يُرتفق بها [١].

إن هذا يشير إلى أن دعاة رفض اللغة العربية أو نقادها لا يعرفون شيئًا عن عظمتها وقيمتها، فهؤلاء لا يبالون إلا بالمعنى والغرض تاركين اللغة وشأنها، وأنها في رأيهم أداة ليس إلا، وقد كان هذا الجهل منهم لأنهم يفتقدون الذوق الأدبي والمعاني العظيمة للغة من سحر في البيان وروعة في الأسلوب وقوة في العبارات وجزالة في الألفاظ وجمال في المعني. وأن جمال القرآن الكريم يتمثل في إعجازه في لغته وآياته فكيف لنا أن نتخلى عن اللغة العربية[٢].؟!!.

وفي ذلك يقول "الرافعي":"إن هذه العربية بُنيت على أصل سحري يجعل شبابها خالدًا عليها، فلا تهرم ولا تموت، لأنها أعدت من الأزل فلكًا دائرًا للنيِّرين الأرضيِّين العظيمين: كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ثم كانت فيها قوة عجيبة من الاستهواء كأنها أخذة السحر، لا يملك معها البليغ أن يأخذ أو يدع"[٣].

على الرغم مما سبق، فإنه إذا كان الخولي قد اتخذ اتجاه التجديد، على طريقته، طريقًا من أجل التوفيق بين القديم والجديد، إلا أنني أرى أن هناك اتجاهًا رابعًا غفل عنه الكثيرون؛ أعني به، التيار التوفيقي الإبداعي الأصيل، وهو الذي لا يقوم بدور التقليد سواءً من التراث أو من الحداثة، بل يبدع وينتج من ذاته تارة ومن السابقين عليه تارة أخرى– لأنه لا يوجد فكر يبدأ من فراغ– بحيث لا يصطدم مع التراث أو الحداثة. يأخذ من التراث ما يتوافق وعصره ويطوِّرَه، ويأخذ من الحداثة ما يتوافق ومبادئه ويطورها أيضًا.

وختامًا، يحضرني قول "المسيري"، الذي أتفق معه تمامًا، فيما ذهب إليه من أن المشروع الحضاري العربي والإسلامي دخل طريقًا مسدودًا من البداية حين عرَّف هدفه بأنه "اللحاق بالغرب". فهذا الشعار كان يعني أن يصبح "الآخر" هو الغاية وأن نصبح نحن

---

(١) **المرجع نفسه**، ص٣٠.

(٢) عبد المنعم يونس: **مرجع سابق**.

(٣) مصطفى صادق الرافعي: **تحت راية القرآن الكريم المعركة بين القديم والجديد**، القاهرة، مكتبة مصر، ١٩٩٩، ص٣٥.

الوسيلة فنتحول إلى بشر من الدرجة الثالثة في معظم الأحوال ومن الدرجة الثانية في أحسنها (لأن من يصل إلى الدرجة الأولى ينضم "إليهم" بطبيعة الحال). وفي محاولة تحقيق هدف اللحاق هذا كان علينا أن نُسكت إبداعنا ونُسقط قيمنا ونمحو ذاتيتنا ورؤانا بحلوها ومرها، لنتقبل ذاتيتهم ورؤاهم بحلوها ومرها. وتحت شعار الموضوعية أصبحت مهمتنا نقل كل ما يأتي إلينا من الغرب، وبخاصة "آخر صيحة"، ابتداءً بالمدارس الفلسفية وانتهاءً بالسيارات والأزياء، وبذلك سقطنا في شكل من أشكال السلفية الغربية التقدمية ووقعنا ضحية إمبريالية المقولات، أي أن نتبنى مقولات الآخر التحليلية ثم نراكم المعرفة، وننظر للعالم، بل ولأنفسنا، من خلالها[1].

(١) عبد الوهاب المسيري: **الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، رؤية حضارية جديدة**، تقديم، محمد حسنين هيكل، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١، ص،١٧.